اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الخامسة عشرة)

عنوان المحاضرة : المتنبي .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

محاضرة ١٥

المتنبى

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جعفىّ المذحجية اليمنية، ولد سنة ٣٠٣ بحى كندة فى الكوفة، ولذلك قد يقال له الكندى. أما أمه فكانت همدانية، فهو يمنى أبا وأما. وذكر بعض خصومه وهجّائيه أن أباه كان سقّاء، وأضاف بعضهم أن اسمه «عبدان». ولم يعر ابن خلكان هذه الدعوى اهتماما، وهى دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفذّ وحسدا. وكل شئ فى سيرة الشاعر يؤكد بطلانها، فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتّاب أبناء الأشراف، ويبعد أن ينتظم فى سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقّاء يحمل

الماء لأهل الحى القاطن به. وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكّرة، وهو فى نحو الثامنة من عمره، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصّبية: ما أحسن وفرتك وشعرك، وفوجئ الصّبىّ بردّه:

لا تحسن الوفرة حتى ترى ...منشورة الضّفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة ...يعلّها من كل وافى السّبال

ولا ندرى هل كان أبوه لايزال حيا أو أنه توفّى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل، ونظن ظنا أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعا. وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكرا فى ديوانه، بينما نجده يرثى جدته وهو فى نحو الثلاثين من عمره رثاء حارا قائلا:

ولو لم تكونى بنت أكرم والد ...لكان أباك الضّخم كونك لى أمّا

وكان أبواه قد توفيا، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة فى سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ فرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفا يسمى هرون بن على الأوراجىّ، ولا نراه يمدح خليفتها ولا حاكمها الأعجمى ولا أحدا من ذوى السلطان، وكأنما وقف حائلا بينه وبينهم ما رآه بأم عينه من فساد الحكم وتسلط الحكام الأعاجم على العرب، ويتألم لما أصابهم من ذلك وهوان، ويفعم صدره بمشاعر العروبة، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من أعماقه:

إلى أى حين أنت فى زى محرم ...وحتى متى فى شقوة وإلى كم؟

وإلا تمت تحت السيوف مكرّما ...تمت وتقاس الذلّ غير مكرّم

فثب واثقا فى الله وثبة ماجد ...يرى الموت فى الهيجا جنى النّحل فى الفم

وهو يستحثّ نفسه والعرب من حوله أن يخلعوا زىّ المحرمين بالحج، يريد زىّ الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منازلة لا تبقى منهم ولا تذر. ويئيس ممن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولّى وجهه نحو بوادى الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب فى طرابلس واللاذقية، وهو لا يكفّ عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يرعون للعرب حرمة ولا عهدا ولا ذمة، ويصيح فى قومه:

وإنما الناس بالملوك وما ...تفلح عرب ملوكها عجم

لا أدب عندهم ولا حسب ...ولا عهود لهم ولا ذمم

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذلّين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العسف والقهر. ويمضى فى دعوته وثورته فى بوادى الشام من اللاذقية إلى بعلبك، ويحسّ فى أهل «نخلة» بالقرب من بعلبك تواكلا وتخاذلا وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهدرة، فيستثيرهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها:

ما مقامى بأرض نخلة إلا ...كمقام المسيح بين اليهود

عش عزيزا أومت وأنت كريم ...بين طعن القنا وخفق البنود

واطلب العزّ فى لظى ودع الذ ...لّ ولو كان فى جنان الخلود

أنا ترب النّدا وربّ القوافى ...وسمام العدا وغيظ الحسود

أنا فى أمة تداركها اللّ ...هـ غريب كصالح فى ثمود

وكان تشبيهه لنفسه فى القصيدة بالمسيح وبالنبى صالح سببا فى أن يتهمه بعض معاصريه بادعائه النبوة، وبالغوا فزعموا أنه ادّعى لنفسه قرآنا ذكروا بعض فقر منه، وكل ذلك غير صحيح، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين. أما لقبه المتنبى فهو الذى لقب نفسه به، أو لعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به، رمزا لعبقريته الشعرية وأنه يأتى فى أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة. وهو يضع فى البيتين الثانى والثالث دستور العرب على مرّ التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم فى ساحة الشرف والنضال، ولا حياة بدون العزة والكرامة. وإن العربى الحرّ ليفضّل العز فى الجحيم على الذل فى الفراديس. ويترك قرية نخلة إلى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ويقود ثورة ضارية، وكان لا يزال فى العشرين من عمره.

دعوته إلى الثورة مستنهضا همم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله:

لا يعجبنّ مضيما حسن بزّته ...وهل يروق دفينا جودة الكفن

وقوله:

ذلّ من يغبط الذّليل بعيش ...ربّ عيش أخفّ منه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليه ...ما لجرح بميّت إيلام

وفى أواخر هذا الاضطراب بين ولاة الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه

زحف به من حلب، ولقيه الروم وهزموا هزيمة ساحقة، قتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره، وأسر منهم آلاف، وضعت فى أرجلهم الأغلال والسلاسل، وبنى سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم، وسجل المتنبى الموقعة فى ميمية رائعة خاطبه فيها مبتهجا بقوله:

وقفت وما فى الموت شكّ لواقف ...كأنك فى جفن الرّدى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ...ووجهك وضّاح وثغرك باسم

ضممت جناحيهم على القلب ضمّة ...تموت الخوافى تحتها والقوادم

بضرب أتى الهامات والنصر غائب ...وصار إلى اللّبّات والنصر قادم

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة ...كما نثرت فوق العروس الدراهم

والمتنبى لا يبارى فى وصفه لوقائع سيف الدولة مع الروم، حتى لكأنما نسمع فى قصائده السيفية قعقعة السلاح، وهى لا شك القطع الأرجوانية الرائعة فى ديوانه، وتوفّيت فى نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أمّ سيف الدولة فرثاها بقصيدة بديعة، وفيها يقول بيتيه المشهورين:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى ...فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام ...تكسّرت النّصال على النصال

ونفس عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة–وفى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى الشاعر–منزلته، فأخذوا يكيدون له عنده، وأحسّ المتنبى بكيدهم، وأن سيف الدولة يرهف سمعه إليهم، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتابا مرّا بمثل قوله:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ...فيم الخصام وأنت الخصم والحكم

إذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا ...أن لا تفارقهم فالراحلون هم

يحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له، وعجيب أمر الناس فإنهم يظلون يحسدون الأديب، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبى، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه. ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبى، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب، بل مدائح المحب المفتون، وإنه ليعلن ذلك فى غير قصيدة من مثل قوله:

مالى أكتّم حبّا قد برى جسدى ...وتدّعى حبّ سيف الدولة الأمم

ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف المعامع، إذ يسوق فيه ألفاظ النسيب والتشبيب والغزل كقوله:

أعلى الممالك ما ينبى على الأسل ...والطّعن عند محبّيهنّ كالقبل

ويصمم على الرحيل، ويرحل إلى دمشق، ويلتقى فيها بأصحاب كافور وأوليائه، فيغرونه بلقائه فى الفسطاط وأنه لابد أن سيقيمه واليا على «صيداء» أو ما يماثلها من بلدان الشام، وكأنما زيّنت نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة فى إقامة الدولة العربية المنشودة. وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله، فيصارحه بمثل قوله:

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ...ولكنها فى مفخر أستجدّه

ويلوّح فى غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية، ولكن دون جدوى، فينتقم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته فى الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هى فى ظاهرها ثناء ولكنها فى باطنها هجاء مرّ من مثل قوله:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا ...لمن بات فى نعمائه يتقلّب

مهما تقدمت بالمتنبى السن ومهما اشتعل عذاره شيبا، بل لكأن شعرات شيبه البيضاء حراب مشرعة لنزال أعدائه، حراب من

ورائها نفس تزمجر، لها أنياب الأسد ومخالبه، ويصور ذلك تصويرا رائعا فى قصيدة مدح بها كافورا سنة تسع وأربعين إذ يقول:

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه ...ولو أنّ ما فى الوجه منه حراب

لها ظفر إن كلّ ظفر أعدّه ...وناب إذا لم يبق فى الفم ناب

فاليأس المرير الذى ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار. وفى أواخر مقامه بمصر ألمّت به حمّى، فوصف نزولها به فى الظلام ومبيتها فى عظامه وأثرها فى جسمه وصفا رائعا، ولها يقول بيته البديع:

أبنت الدّهر عندى كلّ بنت ...فكيف وصلت أنت من الزّحام

وعرّض فى القصيدة برحيله، فقد أحسّ بإخفاق رحلته إلى مصر وارتحل بليل، وهو يرمى كافورا بشواظ من هجائه على نحو ما نرى فى داليته، وقد مزّق فيها أديمه تمزيقا بمثل قوله:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ...إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويكاتبه ابن العميد فى سنة ثلاث وخمسين متوددا إليه آملا فى زيارته ويقدم عليه فى «أرّجان» سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلا فى وصفه:

عربىّ لسانه فلسفىّ ...رأيه فارسيّة أعياده

فمفخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه، ويستقدمه عضد الدولة إلى «شيراز» ويمرّ ببستان يسمى «شعب بوّان» ويروعه جماله، غير أنه مع روعته كدّر نفسه أن لا يرى أثرا للعروبة فيه وفيما حوله من ديار، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله:

مغانى الشّعب طيبا فى المغانى ...بمنزلة الرّبيع من الزمان

ولكنّ الفتى العربىّ فيها ...غريب الوجه واليد واللسان

وأروع مدائحه فى عضد الدولة هائيته، وهو يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العربيات فى الشام، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يجسّمه فى فتاة عربية شامية خلبت لبه، ويصور **جمالها وعفتها بمثل قوله:**

كلّ جريح ترجى سلامته ...إلا فؤادا دهته عيناها

فى بلد تضرب الحجال به ...على حسان ولسن أشباها

فيهنّ من تقطر السيوف دما ...إذا لسان المحبّ سمّاها

إنهن عربيات دونهن الموت الزّؤام. وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا، وفى طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه فى أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبى جهل فى بعض الشذاذ من قطاع الطرق، وصرعه هو وابنه وغلمانه، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقرى: مآتم حداد وسواد. وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حارا.

هجاء :

فى كل أرض وطئتها أمم ...ترعى بعبد كأنهم غنم

يستخشن الخزّ حين يلبسه ...وكان يبرى بظفره القلم

والبيت الثانى يحمل سخرية قاتلة فقد كانوا–كما يقول–عبيدا غلاظا لا يعرفون إلا الملابس الخشنة، وقد طالت أظفارهم، وإذا هم يعيشون فى النعيم، يلبسون الإستبرق بل يستخشنونه، ويملئون ديار العرب بغيا وظلما، ومرت بنا أبيات أخرى فى هجائهم، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير. ويكثر الفخر فى شعر المتنبى، وهو طبيعى لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى **مغالبة الزمن** حتى ليقول:

أمثلى تأخذ النكبات منه ...ويجزع من ملاقاة الحمام

ولو برز الزمان إلىّ شخصا ...لخضّب شعر مفرقه حسامى

وفى ديوانه مراث مختلفة، ولكن أهمها مرثيته فى جدته والأخرى التى نظمها فى أم سيف الدولة، وقد مرت الإشارة إليهما، والمرثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير فى الحياة والموت، وفيها يقول:

يدفّن بعضنا بعضا وتمشى ...أواخرنا على هام الأوالى

وفى رأينا أن هذا البيت هو الذى ألهم أبا العلاء قصيدته: «غير مجد فى ملتى واعتقادى». وتسرى **فيه روح تشاؤم** جعلته ثائرا على الزمن والدهر والناس، وهى روح تحبّب أشعاره إلى قارئه، من مثل قوله:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ...وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولّوا بغصّة كلّهم مذ ...هـ وإن سرّ بعضهم أحيانا

وله غزل طريف، وهو فيه مفتون دائما بالبدويات لجمالهن الفطرى وفى ذلك يقول:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ...وفى البداوة حسن غير مجلوب

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها ...مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يجلو بعض الجلاء شخصية المتنبى الفذة ويرد عنها جملة التّهم التى نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته وحول قرمطيته وعقيدته، وهو قد فرّ مع أبيه من وجه القرامطة حدثا ورحل بسببهم عن الكوفة فى باكورة شبابه،

وحاربهم بأخرة من عمره، ومع ذلك يقال إنه قرمطى، ويلقى ظل من الشك على عروبته، مع أن العروبة لم تجد من يفضله لتختاره ترجمانا لها أروع ما يكون الترجمان.

المصادر والمراجع :

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .